دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	فئات سكان المغرب القديم "تونس، الجزائر، المغرب الأقصى" فترة الاحتلال الروماني
المصدر:	المجلة العلمية لكلية التربية
الناشر:	جامعة الوادي الجديد - كلية التربية
المؤلف الرئيسي:	سرحان، أبو بكر
المجلد/العدد:	ع13
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الشهر:	فبراير
الصفحات:	493 - 524
رقم MD:	1160512
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	التاريخ الاجتماعي، بلاد المغرب، العصر الروماني
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1160512

© 2022 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

كلية التربية بالوادي الجديد

المجلة العلمية

فئات سكان المغرب القديم (تونس- الجزائر- المغرب الأقصي) فترة الاحتلال الروماني

إعـــداد

أ/ أبوبكر سرحان

مدرس مساعد التاريخ القديم(يوناني روماني)- قسم التاريخ

معهد البحوث والدراسات الأفريقية- جامعة القاهرة

٢٠١٤

فئات سكان المغرب القديم (تونس- الجزائر- المغرب الأقصي) فترة الاحتلال الروماني

مقدمة

كان المغرب القديم قبيل الاحتلال الروماني له عام ١٤٦ق.م. ينقسم إلي ثلاثة أقاليم؛ إقليم قرطاجة(تونس) في الشرق، تليه غرباً مملكة نوميديا(الجزائر)، ثم مملكة موريتانيا(المغرب الأقصي) في أقصي الغرب، وبالنسبة لإقليم قرطاجة فقد كان جزءاً من دولة قرطاجة التي استمدت اسمها من اسم المدينة التي أسسها فينيقيون جاءوا من الشرق عام ٨١٤ ق.م.، وكانت في البداية مجرد قرية، كما كان يعني اسمها "قرط حدشت" Quart hadast أو القرية الجديدة في لغة الفينيقيين، ثم اتسعت بمرور الوقت وزادت هجرة الفينيقيين إليها مدفوعين بالظروف الاقتصادية، والسياسية التي تعرضوا لها في بلادهم.

كان الإقليم الذي تسيطر عليه مدينة قرطاجة في المغرب يحده من الجنوب خليج تونس، ومن الشرق خليج إقليم طرابلس ومن الشمال البحر المتوسط، ومن الغرب نوميديا، ويفصل هذا الجزء عن بقية بلاد المغرب خندق كان يسمي الخندق القرطاجي يبدأ من مدينة "ثابراكا"Thabraca (طبرقة Tobraca الحالية بتونس) حتي شمال غرب مدينة "كابسا" Capsa (قفصة Cafsa بتونس حالياً) وينتهي قرب مدينة "المحص" Mahs الحالية بتونس، كما كانت قرطاجة تسيطر علي شريط طويل يمتد من غرب إقليم "طرابلس"في الشرق ثم يتجه خلف الخندق القرطاجي ليصل إلي ساحل البحر المتوسط ويشمل جميع المدن والموانئ الساحلية حتي المحيط الأطلنطي.

أما بقية بلاد المغرب فيما بعد حدود إقليم قرطاجة، فكان ينقسم في ذلك الوقت، قبيل الاحتلال الروماني، إلي مملكتين هما مملكة نوميديا Numidia ثم مملكة موريتانيا Mouritania، وبالنسبة لمملكة نوميديا التي نُسبت لأكبر المجموعات القبلية التي سكنت

المنطقة وأطلق اسمها علي المملكة وهي قبائل النوميديين، فكانت حدودها تقع فيما بين خليج سيرت في الشرق ووادي نهر ملوية في الغرب.

وكانت تقع ضمن هذه المنطقة أراضي قبائل"الماسيل"Massyl وكانت تتركز مواطنها في شرق المملكة وشمال تونس فيما عدا أراضي إقليم قرطاجة"، ثم قبائل المازيسيل" Massesyl أهم القبائل النوميدية، وكانت تتركز مواطنها في الغرب، ولم تكن لأراضي هاتين القبيلتين حدود معلومة بينهما في البداية، ولم تضبط هذه الحدود إلا في القرن الرابع قبل الميلاد؛ بعد أن كونت قبائل الماسيل، مملكة نوميديا الشرقية وكانت عاصمتها"سيجا" Siga(بني صاف الحالية بالجزائر)، وكونت قبائل المازيسيل مملكة نوميديا الغربية وعاصمتها مدينة "سيرتا" Cirta (قسنطينة الحالية).

أما مملكة موريتانيا في الغرب فكانت تمتد من نهر "مولوكا" Mulucca "ملوية" شرقاً وحتي المحيط الأطلنطي غرباً، وقد نسب إسم المملكة إلي إحدي أكبر القبائل التي كانت تسكن إقليمها وهي قبائل المور.

وجدير بالذكر أن خارج حدود هذه الأقاليم الثلاثة، قرطاجة ونوميديا وموريتانيا، كانت تنتشر مجموعات القبائل شمالاً وجنوباً ربطت بينها حياة التنقل وعدم الاستقرار، وكانت من أهم قبائلها قبائل "النسامونيس"Nasamones، وكان موطنها بالقرب من خليج سيرت في الشمال، وقد غلب علي إقليمها الجفاف، مما جعلها أكثر القبائل المغربية استمراراً علي الحياة البدائية الرعوية، وكثرت هجراتها نحو الأرض الخصبة شمالاً؛ جرياً وراء العشب أو هروباً من حرارة الشمس.

ثم قبائل الجيتوليين Gaetuli (جدالة) وهي القبائل الرعوية التي تسكن علي طول الحواف الشمالية للصحراء الكبري، وإلي الجنوب من مملكة موريتانيا وحتي المحيط الأطلس غرباً، هذه القبائل المتنقلة وغيرها التي أزعجت الرومان بعد احتلالهم المغرب

واستقرارهم نتيجة تحركاتهم فمثلاً، كبدت قبائل الجيتوليين السلطات الرومانية الكثير من الخسائر، ولجأ إليها الكثير من الثوار النوميديين والموريتانيين؛ لتجنيد جيوش منها لمحاربة الرومان، كذلك فعلت قبائل النسامونيس حين لعبت دوراً في الصراع الدائر ضد الرومان في المدن الشمالية.

بدأ الاحتلال الروماني لبلاد المغرب بسقوط قرطاجة عام ١٤٦ق.م.، وتحويل إقليمها لولاية رومانية في نفس العام بعد أن خاض الطرفان ثلاث حروب استمرت من عام ٢٦٤ق.م. إلي عام ١٤٦ق.م. عرفت بالحروب البونية- نسبة إلي اللغة التي كان يتحدثها الفينيقيين في المغرب-، وقد بدأ الصراع بين الطرفين عندما تعارضت مصالحهما السياسية والاقتصادية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، تحديداً بعد أن كان الرومان قد احتلوا معظم شبه الجزيرة الإيطالية، وأصبحت لهم بذلك ممتلكات في جنوب الجزيرة تواجه مناطق النفوذ القرطاجي في البحر المتوسط، وأصبح كلاهما متخوفاً من الأخر ونتج عن ذلك اندلاع عدة حروب بينهما عرفت الحروب البونية دارت أحداثها في كل من إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا؛ أنتهت بسقوط قرطاجة عام ١٤٦ق.م.

أحدثت التغيرات السياسية والاقتصادية التي ترتبت علي الاحتلال الروماني للمغرب تأثيرات جوهرية في الخريطة البشرية للمغرب القديم- من بداية الاحتلال عام١٤٦ق.م. وحتي سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٢٩م.-، ونتج عن ذلك اختلاف واضح في فئات السكان، وعلي ذلك فأن الجانب المنهجي في دراسة هذه الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية بالمغرب في تلك الفترة يدعونا إلي تصنيف السكان حسب انشطتهم الاقتصادية وبيئتهم الاجتماعية ومنزلتهم السياسية إلي خمسة فئات وهي: الرعاة، المزارعون، التجار، الصناع والحرفيون، الجنود.

تساؤلات الدراسة

- من هم الرعاة والمزارعون في مجتمع المغرب القديم وإلي أي الطبقات ينتمون؟ وهل التوسعات العمرانية التي أحدثتها التوسعات الرومانية في المغرب كانت علي حساب الرعاة والمزارعيين؟
- من هم التجار وإلي أي الفئات كانوا ينتمون؟ وهل عمل سكان المغرب الأصليون بالتجارة؟ وماهي أهم سلع التجارية الواردة والمستوردة؟
- من هم الصناع والحرفيون وإلي أي الطبقات ينتمون؟ وماهي أهم تلك الصناعات والحرف؟
- علي من كانت تعتمد روما في جيوشها من جنود؟ هل هم رومان، أم إيطاليين أم من السكان الأهالي، أم من غير هم، أم من كل هؤلاء؟

تقسيم الدراسة

أولاً: الرعاة

ثانياً: المزارعون

ثالثاً: التجار

رابعاً: الصناع والحرفيون

خامساً: الجنود

أولاً: الرعاة

هم البدو الرحل الذين مارسوا الرعي واعتمدوا عليه في معيشتهم، وهم الذين عرفوا بتنقلاتهم بين المراعي الصحراوية وفي السهوب الشمالية حيث المراعي الطبيعية والمياه غرب قرطاجة شرقاً حتي المحيط الأطلسي غرباً، وكانوا من السكان الأصليين، ويكونون مجموعات قبلية كان أهمها الجيتوليين والموسولامي والنوميديين[1]، وليس لدينا من المعلومات التاريخية الكافية لتحديد وضع هذه الفئة الاجتماعية منذ العصر القرطاجي، إلا

أننا نعلم أنه في عهد الملوك النوميديين جرت محاولات لتنظيم نشاط وتحركات الرعاة وتشجيعهم علي الاستقرار وامتهان الزراعة بدلاً من الرعي، وكانت العلاقة بين هؤلاء وملوك مملكة نوميديا في الشمال علاقة جيدة؛ بدليل أن تجارة ما وراء الصحراء كانت رائجة منذ القدم، ولم تواجه التجار معوقات من أي نوع يسببها لهم الرعاة المتنقلون بل منهم من كان يؤمّن قوافل التجارة ويقوم بدور الوسيط في نقل سلع التجارة بين مراكزها في الجنوب والشمال خاصة أثناء الازدهار الاقتصادي التي تحقق في عهد الملوك النوميديين نتيجة توسيع مجال التبادل التجاري مع عالم البحر المتوسط حيث أصبحت مدن نوميديا الكبري أسواقاً للسلع المستوردة والمحلية، ويلتقي فيها التجار من الشمال والجنوب(٢).

في فترة الاحتلال الروماني للمغرب واجه هؤلاء الرعاة خاصة في الولايات البروقنصلية ونوميديا صعوبات مع الإدارة الرومانية التي كان يزعجها كثيراً تنقل هؤلاء من مكان لآخر؛ حيث كانت هذه التنقلات تهدد أمن الولايات الرومانية علي الحدود وفي الداخل، ومن ناحية أخري كانت تصعب من مهمة جمع الضرائب لعدم إمكانية تحديد مكان استقرار لهؤلاء يمكّن جامعي الضرائب من حصر أعدادهم(٣).

وللحد من هذا الخطر اتخذ الرومان عدد من الإجراءات التحصينية والوقائية؛ منها مطاردة هذه القبائل وإزاحتها نحو الجنوب، والتوسع في إنشاء الحصون والقلاع علي طول خط الحدود(الليميس) Limes الذي كان يفصل بين الولايات الرومانية في الشمال والأقاليم الجنوبية في الصحراء التي كان الرومان يطاردون هؤلاء الرعاة نحوها. وشهد عصر الإمبراطورية نشاطاً زائداً في هذا المجال، حيث تم ابتكار نظام دفاعي محكم وإنشاء سلسلة من الحصون تمتد علي طول الحدود الجنوبية(٤).

نلاحظ من ذلك أنه عندما استقرت الأوضاع للرومان في المغرب مع بداية عصر الإمبراطورية وزاد النشاط الاستيطاني الروماني هناك، زاد حرص الرومان علي تأمين وضعهم السياسي ومصالحهم الاقتصادية والتي تتعارض مع نشاط هؤلاء الرعاة وخاصة

طبيعتهم المتمردة والرافضة لأي نوع من القيد والسيطرة التي مارسها ضدهم الاحتلال، ومما أكد للرومان ضرورة اتخاذ تلك الإجراءات ما قامت به هذه القبائل من الرعاة من ثورات ورفض لتلك الإجراءات المقيدة والتي تحد من نشاطهم وحركتهم(٥).

جدير بالذكر أنه كانت هناك محاولات نحو جذب هذه المجموعات نحو الاستقرار، كما حدث في عهد الإمبراطور "أغسطس" Augustus (٣٠ق.م.-١٤م.) الذي شجع البدو الرحل علي تعلم الزراعة والاستقرار في قري ومدن زراعية أقامها علي طول خط (الليميس)، وقد نجح هذا الإجراء إلي حد ما في توطين هذه القبائل والحد من تنقلاتها وكان الهدف من ذلك ليس فقط تجنب الاضطرابات الي تسببها هذه المجموعات الرعوية؛ ولكن أيضاً تسهيل مهمة جامعي الضرائب كما أشرنا، لكن هذا الإجراء لم يقض نهائياً علي هذه الظاهرة لحنين الرعاة الدائم لحياة الحرية والانتقال، مما جعل الإدارة الرومانية تتخذ المزيد من الإجراءات العسكرية والاستيطانية وتحصين الجهات التي يتحرك في محيطها هذه المجموعات ببناء المستوطنات الرومانية، فمثلاً شرع الإمبراطور تيبريوسTiberius (١٤م.-٣٧م.) ببناء المستوطنات في جنوب مملكة نوميدياعبر أراضي قبائل الموسولامي التي قاومت بشدة تلك الاجراءات التوسعية(٦).

وإذا كان هؤلاء الرعاة قبل الإجراءات التوسعية التي اتخذها الرومان علي حساب أراضيهم فئة مندمجة مع بني جلدتهم من المزارعين وسكان الحضر ولها مكانتها السياسية الاقتصادية؛ فإنه بعد هذه الإجراءات التي كثفها الرومان في القرن الأول الميلادي ضدهم حدثت تغيرات جوهرية في بنيتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بعد أن أرغمت القبائل علي النزوح خارج أراضيها وشتت قبائل أخري فرقاً، وتم القضاء علي البعض منها ومحاصرة البعض في أقاليم محدودة، ومحاولة توطين البعض الآخر في قري زراعية(٧).

ولما لم يكن متاحاً لهم اختراق خط الحدود الذي تفنن الرومان في إحكام حصونه؛ فهام بعضهم في الصحراء بحثاً عن مجال بديل، وأدي ذلك إلي فتح الصحراء من قبل

هؤلاء المبعدين[٨]، كما أن بعض البدو غير مسار رحلاته الموسمية نحو السهوب الغربية وجنوبي المرتفعات الشمالية الغربية، حيث كانت استحكامات الحدود الرومانية أضعف مما هي عليه في الشرق، وقد شكل هذا خطراً علي حدود ولاتي موريتانيا[٩].

ولعل أكثر الاجراءات تأثيراً علي الرعاة هي التي تمت في عهد أباطرة الأسرة السيفيرية(١٩٣-٢٣٥م.) بقصد السيطرة علي ظاهرة البداوة ومراقبة نشاط أهلها، وهي إسناد مهمة تأمين الحدود الصحراوية إلي جنود سوريين متخصصين في حروب الصحراء، وإنشاء قلاع ومراكز مراقبة في عمق الصحراء، وتوزيع الأراضي التي تم الاستيلاء عليها من قبائل البدو علي الجنود، وفي عهد الإمبراطور "سبتيموس سيفيروس" تم التفكير في توسيع حدود الولايات الرومانية بالمغرب ناحية الجنوب وكان الغرض من هذا الإجراء، إلي جانب توسيع مساحة الأرض المملوكة للرومان، هو دفع القبائل من الرعاة أكثر ناحية الجنوب، ولكن هذه الاجراءات لم تفعل سوي أنها ضاعفت من خطورة المشكلة، فقد زاد عدد البدو فيما وراء خط الحدود، حيث صاروا يتمركزون في منطقة محدودة حيث الأماكن الصالحة للرعي صارت هي الأخري محدودة وقريبة من خط الحدود الذي كان يتحرك حسبما يتم التوسع، وهو ما شكل خطراً مباشراً وقريباً جداً من الرومان[١٠].

ولعل الأثر الذي أحدثته هذه المجموعة من الإجراءات، وهي علي سبيل المثال لا الحصر، في مجتمع المغرب في تلك الفترة كان كبيراً فظاهرة الرعي قديمة قدم البلاد حتمتها العوامل الجغرافية؛ الموقع والأرض والمناخ والمعروف أن تنوع النشاط الاقتصادي يحدث توازناً بين البيئة والسكان، إلا أن ماحدث من التوسع في الأراضي الزراعية علي حساب أراضي الرعي وتفريغ الصالح من هذه الأراضي للزراعة من سكانه من أشباه البدو إلي بدو رعاه وإجبارهم علي الرحيل بحثاً عن مراعٍ جديدة كان التوجه الطبيعي لها نحو الصحراء، لذا لم تكن ملائمة من حيث إنتاج العشب والمراعي لحيواناتهم، هذه الحالة

أحدثت خللاً، ليس فقط بيئياً، بل اجتماعياً أضر بهذه الفئة وغير من طبيعة نشاطها ومجالها، كما أن الأسلوب الذي اتبعه الرومان لتنفيذ هذه الإجراءات والذي تميز بالقسوة والعنف خلق لديهم رغبة في التمرد والمقاومة ورفض الاندماج في المجتمع الذي صار كل ما فيه رومانياً محاولة منهم المحافظة علي ما تبقي لديهم من عاداتهم وتقاليدهم وحبهم للحرية ورفض القيود(١١).

ثانياً: المزارعون

كانت الزراعة مثل الرعي حرفة أصيلة في بلاد المغرب منذ القدم، فعرف سكانه الاستقرار والزراعة في نطاق محدود ثم تطورت مع مرور الوقت، فتشير المعطيات الأثرية إلي أن الجماعات السكانية استقرت علي أطراف الأنهار والعيون والآبار والواحات والشواطئ والبحيرات منذ حوالي الألف الخامسة قبل الميلاد(١٢)، حيث مارس هؤلاء السكان الزراعة البدائية، المعتمدة علي المعاول والمحاريث، ثم تطورت الزراعة علي يد الملوك النوميديين، واستفاد المزارعون أيضاً مما أتي به الفينيقيون في هذا المجال(١٣).

كان معظم المزارعين في المغرب من السكان الأصليين والفينيقيين والإيطاليين، وقد تركز المزارعون الإيطاليون في ريف الولاية البروقنصلية وفي نوميديا خاصة في المناطق القريبة من الشريط الساحلي، بينما قلت نسبتهم في ولايتي موريتانيا، وانعدمت في مناطق السهوب الخاضعة للقبائل الرعوية والمناطق الداخلية(١٤)، وكان هؤلاء يمثلون مجموع الأجراء والمستأجرين بشكل أساسي لأن ملاك الأرض كان معظمهم من الرومان أو أثرياء الإيطاليين(١٥).

وقد اختلفت الحالة الاجتماعية لهؤلاء المزارعين سواء كانوا أجراء أو مستأجرين، فهم في أراضي الملاك من الرومان والإيطاليين(برجوازية المدن والبلديات) كانوا من المواطنين الأحرار ويقيمون في القري القريبة من هذه المدن أو في مزارع الملاك نفسها، أما الأملاك الإمبراطورية أو الضياع الكبري Latifundia فكان وضعهم أشبه بالعبيد،

سواء كانوا يعملون في هذه الأملاك كأجراء أو كانوا مستأجرين[١٦]، ومنهم من كان عمله بهذه الضياع مرتبطاً بموسم الزراعة ثم يغادرونها بعد نهاية الموسم، ومعظمهم من السكان الأصليين الرعاة الذين أجبرتهم السلطات الرومانية في عصر الإمبراطورية علي الزراعة وترك حياة التنقل والترحال المرتبطة بمهنة الرعي كما أشرنا من قبل[١٧].

شملت فئة المزارعين أيضاً أشباه المستقرين من المغاربة، وكانت مواطنهم في الأقاليم الرعوية، يمتهنون الرعي والزراعة في آن واحد، وهم الذين كانوا أكثر تضرراً من جراء توسيع المساحة الزراعية من طرف الرومان ابتداء من القرن الأول الميلادي، باعتبارهم كانوا يعيشون في إقليم قابل للاستصلاح الزراعي، وكانت قبائل الجيتول الشمالية من هؤلاء، وكان هذا الصنف قابلاً للتحول من الرعي والترحال إلي امتهان الزراعة والاستقرار، بحيث كانت الزراعة تمثل أهم موارد معيشتهم، وكانوا علي صلة وثيقة بالزراع بحكم الجوار، وقد أجبرت الظروف الاستعمارية الكثير من هؤلاء علي ترك الرعي والانخراط في صفوف المزارعين[١٨].

ثالثاً: التجار

من أهم فئات المجتمع التي ساهمت في ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني له خاصة في العصر الإمبراطوري بعد أن استقرت سلطة الرومان هناك وتحول المغرب كله إلي ولايات رومانية وأصبح هؤلاء التجار يأمنون علي تجارتهم وأموالهم، وجدير بالذكر أن هؤلاء التجار كانوا يعرفون بلاد المغرب قبل الاحتلال بوقت طويل؛ فمنذ العصر الملكي في روما كانوا يحصلون علي ما يحتاجونه من سلع وخاصة الزراعية والحيوانية سواء بأنفسهم أو عن طريق التجار الإغريق والفينيقيين، ثم تزايد الطلب في العصر الجمهوري علي هذه السلع[١٩].

فقد أكدت النقود الموريتانية والنوميدية المكتشفة في أسبانيا وفرنسا وكرواتيا، أن التجار المغاربة كانت لهم تجارة مع هذه البلدان وسلعهم كانت تصل إليهم، ففي "كرواتيا"

عثر علي كنز دفن في مدين "مازين" Mazin الكرواتية عام ٨٠ ق.م.يضم ٣٢٨ قطعة نقود عليها صورة ماسينيسا، ومعها خمسمائة قطعة قرطاجية، وكذلك عثر في أماكن متفرقة في الجزائر علي نقود إغريقية من أثينا وبرقة وردس ومرسيليا، مما يدل علي رواج التجارة بين مدن المغرب وهذه البلدان منذ زمن مبكر، فقد وجد تمثالان للملك ماسينيسا في جزيرة "ديلوس" Delos، أقام واحد منهما أحد الديلوسيين الذي كان يقول أنه صديق للملك "ماسينيسا"، والثاني أقامه أحد أبناء جزيرة رودس Rhodes، ويدون شك أن هذين الشخصين كانا يعملان بالتجارة وعقدا الصفقات التجارية مع الملك النوميدي"ماسينيسا"[٢٠].

وفي العصر القرطاجي زاد توافد التجار الرومان علي بلاد المغرب خاصة لمدينة قرطاجة، بعد أن عقدت اتفاقيات بين روما وقرطاجة تحدد نشاط كل طرف في حوض البحر المتوسط[٢١]، وتنظيم عملية التجارة ولكن تجدر الإشارة إلي أن هذه الحركة لم تهدف إلي استقرار التجار الرومان في المغرب، ولكن اقتصرت فقط علي مجرد ممارسة عملية التجارة، أما استقرار هؤلاء التجار ببلاد المغرب فبدأ بعد الاحتلال الروماني وهجرة أعداد كبيرة منهم إلي هناك، إلي جانب التجار من الإيطاليين كما سبق وأن أشرنا من قبل واستقرارهم في مدن نوميديا في بداية الأمر[٢٢].

وتجدر الإشارة إلي أن التجار الإيطاليين كانوا أهم العناصر التي كونت هذه الفئة في المغرب، وكانت أهم السلع التي اهتموا بتجارتها هو القمح، حيث كانوا علي معرفة جيدة بحاجة السوق الإيطالية عموماً، بما فيها روما بالطبع، إلي هذه السلعة الهامة[٢٣]، كما استطاع هؤلاء أن يسيطروا علي معظم أنشطة التجارة الداخلية في المغرب خلال فترة الاحتلال الروماني له إلي جانب محاولتهم السيطرة علي تجارة الصحراء التي كانت حكراً علي القبائل الصحراوية، وكان "أغسطس" قد أصدر عام ٢٢ق.م. قانون ينظم تزويد

سكان روما بالمؤن بانتظام، من خلال التعاقد مع التجار في المغرب، وظل المغرب حتي نهاية القرن الأول الميلادي يزود روما بحاجتها من القمح ثمانية أشهر من العام.(٢٤).

كان هناك أيضاً التجار السوريون الذين زاد نشاطهم بالمغرب خلال عصر الإمبراطورية الرومانية، وهو ماتؤكده البقايا الأثرية المتعلقة بأسماء الأشخاص، والأمتعة التي تم العثور عليها في مدن المغرب من "فولوبيليس" Volubilis (وليلي بالمغرب الأقصي حالياً)، إلي "ثيسدروس"Thysdrus(الجم El Djem بتونس حالياً)(٢٥).

وجدير بالذكر أن أغلب عناصر السكان في المغرب في تلك الفترة كانوا يمارسون التجارة؛ أولاً نظراً لما كان يحققه هذا النشاط من ثراء، ثانياً لما كانت تتمتع به هذه الفئة من مكانة اجتماعية مميزة لأنهم لم يكونوا شركاء في الحياة الاقتصادية فقط بل شركاء أيضاً في الحياة السياسية، وهو ما دفع الإدارة الرومانية أن تولي اهتماماً بهذه الفئة وبهذا النشاط(٢٦)، ولعل أهم وثيقة تاريخية تسجل حالة التجارة والتجار في المغرب في عصر الإمبراطورية الروماني، هو نص مدينة "زراي"Zarai(٢٧)غرب نوميديا، يرجع لعام ٢٠٢م.، وفيه رصد للنشاط التجاري بالأسواق سواء كانت داخلية أو خارجية والسلع المتداولة التي تخضع لضريبة المرور مثل القمح والسمك المملح، والأسفنج، وأهمية التجار في تسيير هذا النشاط وإبرام العقود التجارية مع الدولة الرومانية(٢٨).

أما السلع التي كانت محلاً لنشاط التجار من وإلي بلدان المغرب المختلفة فنذكر منها، الخمور كانت تأتي من الشرق وإيطاليا، وقد عثر في مدينة "قاجا" علي جرة تحمل خاتماً لاتينياً، وفي مدينة "سيرتا" عثر علي أمفورات بعلامات رودوسية Rhodiennes، وهي الأمفورات التي كانت ترفاً للأغنياء، ومن المواد المستوردة أيضاً الأثاث المنزلي والأسلحة والآنية المعدنية، فقد عثر في مدافن بعض المدن في المغرب علي مسارج إغريقية، وعلي أواني فخارية ذات اللمعة السوداء Black Figute، والتي كانت تستورد أيضاً من بلاد المغرب، والقمح، والصوف والجلود والماشية والخيول والعبيد والتمر، التي

تم جلبها من خليج السيرت الصغير لتعبر غرباً تجاه الأسواق الموريتانية، والعقيق بنوعية الأحمر Escarboucles والروماني Grenat الذي امتازت به قبائل الماسيليين، والعاج وخشب الستروس Citrus (العرعر Thuya)، الذي كان مطلوباً بشدة في الخارج، والمرمر النوميدي، وكانت الألعاب العمومية في روما تطلب الحيوانات المتوحشة والعجيبة، والموائد الأرستقراطية تطلب الطيور والحيوانات ذات اللحوم اللذيذة[٢٩].

رابعاً: الصناع والحرفيون

كانت مهنة الصناعة والمهن الحرفية الأخري محدودة في بلاد زراعية بالدرجة الأولي ولكنها كانت موجودة منذ القدم، علي الأقل لتفي بالاحتياجات اليومية للسكان، ولكن لا شك أن احتكاك سكان البلاد الأصليين بالشعوب الأجنبية وأولها الفينيقيون ساعد علي تطوير هذه المهن وظهور حرف وصناعات أخري جديدة، فقد أدي نشاط الفينيقيين التجاري وحصولهم من خلال المواد الخام المتنوعة إلي اهتمامهم بالصناعات والحرف المرتبطة ونقلوها بالتالي إلي الشعوب التي احتكوا بها، فمثلاً تطلبت عملية الاستيطان الفينيقي في بلاد المغرب وتأسيس المدن ظهور حرفة البناء والحرف الأخري المرتبطة بها مثل النجارة والحدادة، كذلك أدخل الفينيقيون صناعة المنسوجات بالصبغة الأرجوانية التي اشتهروا بها والتي ارتبطت بحرفة الصيد البحري والحصول علي المحار الذي كانوا يستخلصون منه تلك الأصباغ[٣٠].

أيضاً صناعة تجفيف الأسماك وصناعة الفخار وصناعة الأدوات المنزلية والتماثيل والحلي التي كان يتزايد عليها الطلب من قبل الأثرياء، ونستطيع أن نستنتج من ظهور هذه الصناعات والحرف وتطورها ما أصبح للصناع والحرفيين من أهمية ومكانة في مجتمع المغرب في تلك الفترة، والفضل في ذلك يرجع للفينيقيين، فقد عثر علي نقش باللغتين البونية والليبية علي ضريح بمدينة "ثوجا" Thugga(دقة) يحتوي علي أسماء

لعمال وآبائهم من أصل فينيقي ومغربي منهم ثلاثة من البنائين واثنين من النجارين واثنين من الحدادين(٣١).

وتشير النقوش التي عثر عليها في المغرب وترجع لعصر الإمبراطورية، في إشارات قليلة إلي فئة الصناع والحرفيين خاصة البنائين(٣٢)، وكان أصحاب هذه الحرف والصناعات غالباً من السكان الأصليين ومن طبقات المجتمع الدنيا، حيث ترفع الرومان والإيطاليون عن ممارسة المهن اليدوية عموماً واعتبروها مهنة العبيد لا الأسياد، ويلاحظ أن السكان الأصليين خاصة في المناطق الجنوبية كانوا يشكلون النسبة الأكبر ضمن هذه الفئة بعد أن انتزعت أراضيهم ولم تكن أمامهم سوي امتهان هذه الحرف والصناعات كبديل(٣٣).

ويلاحظ أيضاً أن أغلب الحرف والصناعات كانت مرتبطة بمتطلبات الحياة اليومية للسكان ومعظمها مرتبط بالمواد الخام الزراعية والحيوانية التي وفرتها البيئة، مثل صناعة الفخار(٣٤) والتعدين والحدادة(٣٥)والنجارة ودباغة الجلود وغزل الصوف والمنسوجات وطحن الحبوب والزيتون(٣٦)

والراجح أن الصناع والحرفيين كانوا يسعون بأنفسهم لبيع ما ينتجونه، عن طريق عرضها في دكاكينهم أو التجوال وعرضها في أسواق المدن، وأكبر سوق لتجمع أهل الحرف لبيع منتجاتهم كان سوق مدينة"سيرتا"(قسنطينة) الذي كان يأتيه الباعة من جميع نواحي المغرب وخاصة الجنوب، في أوقات محددة في فصل الصيف بعيداً عن الأمطار والانشغال بالعمل الفلاحي الذي يكون متوفراً في الشتاء، وكانوا في ذهابهم وإيابهم يسافرون في جماعات، ليكونوا قادرين علي الدفاع عن أنفسهم وسلعهم ضد قطاع الطرق(٣٧).

وخلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، قام كل من الرومان والإيطاليون بالإشراف علي هذه الحرف والصناعات وسن القوانين التي تنظمها، وتخصيص أماكن لها في المدن والأرياف، وظهور مهن وصناعات جديدة لسد متطلبات وحاجات السكان اليومية التي زادت في تلك الفترة وزادت معها رغبة الإيطاليين علي وجه الخصوص في استثمار أموالهم في هذا المجال(٣٨).

ورغم ندرة المعلومات الخاصة بوضع هذه الفئة داخل المجتمع، لكن يمكن لنا أن نتصور وضع فئة، معظم أفرادها من السكان الأصليين الذين هم في نظر المحتلين في وضع قانوني وحضاري أقل منهم شأناً، ومن ناحية أخري يمارسون مهنة لا تصلح إلا للعبيد والطبقات الدنيا من المجتمع وليس أدل علي ذلك من أنه تم تخصيص أماكن لأصحاب هذه الفئة في الريف والمدن الداخلية الفقيرة.

خامساً: الجنود

كان الجنود في المغرب خلال العصر الروماني وخاصة عصر الإمبراطورية، فئة من فئات هذا المجتمع، فلم يقتصر دورهم علي الجانب العسكري فقط لكنهم أصبحوا نتيجة لعدد من الإجراءات، جزء من نسيج المجتمع وتكوينه بل ولهم دور فاعل فيه، ولكن السؤال هو، كيف جمعت هذه الفئة بين دورها الأساسي وهو الحماية والدفاع عن ممتلكات الرومان ضد الأخطار الداخلية والخارجية، ثم دورها في الحياة المدنية واندماجهم في نسيج المجتمع؟ وجدير بالذكر أن هذا الوضع كان ينطبق علي كل الولايات الرومانية وإن كان المغرب له وضع خاص من الناحية الاجتماعية؛ لأنه كان مجتمع مختلط العناصر والجنسيات بحكم موقعه وتاريخه. وإذا طبقنا هذا الأمر علي هذه الفئة لكان خير دليل علي تنوعها.

فكان العنصر الأساسي للقوات الرومانية في المغرب بداية الاحتلال من الإيطاليين وذلك للثقة في ولاء هذا العنصر، ولم يُقبل الرومان علي تجنيد أفراد من السكان الأصليين

نظراً لشكهم في مدي ولائهم للرومان ولعدم كفاءتهم من وجهة نظر الرومان، ومن أمثلة تطبيق هذه السياسة هو الإجراء الذي أخذه قيصر بعدم تجنيد أفراد فرقه العسكرية عموماً من غير الإيطاليين إلا نادراً جداً(٣٩).

وبعد تأسيس ولاية أفريقيا الرومانية ترك الرومان بها حامية عسكرية قدر عدد جنودها بحوالي عشرة آلاف جندي، كانت مهمتها الحفاظ علي أمن الولاية من الداخل والدفاع عنها في الخارج، وبعد انتهاء الحرب الأهلية الرومانية عام ٤٦ق.م.، كان يوجد في المغرب ثلاث فرق رومانية تحت قيادة قيصر، والتي بقيت كما هي لحماية الممتلكات الرومانية من غارات القبائل المغربية، وفي عام ٤٣ق.م. استدعي مجلس الشيوخ فرقتين منها بصفة مؤقته، وترك الثالثة تحت قيادة "كورنيفيسيوس" Cornificius حاكم الولاية القديمة، وعندما تولي أوغسطس قام بتوحيد الولايتين القديمة والجديدة في ولاية واحدة هي البروقنصلية، وكان يوجد بالمغرب الثلاث فرق السابقة، وقام بتخفيضها إلي فرقة واحدة أطلق عليها الفرقة الثالثة الأوغسطية Legio Tertia Augusta نسبة إليه(٤٠).

في بداية عصر الإمبراطورية وفي عهد الإمبراطور أغسطس كان الرومان العنصر الأساسي في الفرق الرومانية العسكرية Legiones في المغرب، سواء من المقيمين في روما أو من سكان الولايات ممن يتم منحهم المواطنة الرومانية، أما القوات المساعدة Auxiliae فكانت علي العكس من ذلك، حيث كان معظم أفرادها جنود من عناصر أجنبية من سكان الولايات الأخري، ومع بداية القرن الثاني الميلادي وبعد أن تمكن الرومان من فرض سيطرتهم علي كل أرجاء المغرب وتحويله إلي ولايات وتأمين الحدود؛ اتجهوا إلي تجنيد بعض عناصر الفرق والقوات المساعدة من السكان المحليين بجانب الجنود الأجانب(٤١)، بل أن هناك بعض القوات تكونت بأكملها من العناصر المحلية فقط؛ مثل قوات الموريين Cohors Maurorum ، وأيضاً فرقة الموسولامي في موريتانيا Cohors Muzulamiorum(٤٢)، وقوات من النوميديين التي اعتمد عليها الرومان

اعتماداً كبيراً نظراً لمهارة المحاربين النوميديين كخيالة وكفاءتهم القتالية[٤٣] إلي جانب قوات مدربة علي حرب الصحراء، تم جلبها من سوريا لمحاربة البدو علي الحدود الجنوبية للولايات[٤٤].

أما عن علاقة هؤلاء الجنود وهذا التشكيل المتنوع بالمجتمع، فإنه من ناحية الاتجاه لتجنيد العناصر المحلية في الجيش من قبل الرومان، أنه أفضل الوسائل لادماج هؤلاء واختلاطهم بالعناصر الأخري خاصة من الرومان والإيطاليين، فبعد أن يقضي الجندي مدة الخدمة العسكرية، خاضعاً للنظام الروماني ليس فقط في مجال العسكرية لكنه يتكلم اللغة اللاتينية ويتأثر بعادات وثقافة الرومان، فيصبح في النهاية مواطناً رومانياً، والغرض من هذا الدمج والتشجيع عليه، كان بطبيعة الحال هو ضمان ولاء هذه العناصر للرومان[٤٥].

كان للجنود للسوريون مكانة خاصة دون العناصر الأخري في القوات الرومانية بالمغرب، فكان منهم الرماة المهرة ثم فرق الهجانة التي كانت عماد القوات المواجهة للقبائل الصحراوية علي الحدود، وكان الجمل وسيلة للإنتقال عندهم، وتزايد اعتماد الرومان في أفريقيا علي هذا العنصر في قواتهم منذ بدأ الرومان احتلالهم للمناطق الجنوبية في المغرب أواسط القرن الثاني الميلادي، وزاد عددهم ووثق الأباطرة فيهم في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس السوري الأصل ومغربي المولد[٤٦].

أما من ناحية الجنود الرومان والإيطاليين فإن تجنيدهم كان صورة من صور الاستعمار الروماني، حيث كان الجنود المسرحون بعد انتهاء الحرب، أو الذين أنهوا مدة الخدة العسكرية لا يعودون لأوطانهم، نظراً للامتيازات التي كان يمنحها لهم الأباطرة، كإسناد وظائف إدارية لبعضهم وتوزيع الأراضي الزراعية علي البسطاء منهم، وتوطينهم في مستعمرات زراعية ذات طابع دفاعي؛ لأن موقعها كان غالباً عي حدود الولايات الجنوبية، وكان الإمبراطور أغسطس هو أول من اتبع هذه السياسة في كل ولايات

الإمبراطورية عموماً، حيث منح جنوده المسرحين من الرومان والإيطاليين في المغرب مستعمرات علي طول الحدود الجنوبية في نوميديا وموريتانيا[٤٧]، ومما لا شك فيه أن هذه المستعمرات ساهمت في نشر الحضارة الرومانية بين سكان البلاد سواء في شمالها أو الجنوب في مناطق الاحتكاك مع القبائل.

ومما جعل لهذه الفئة أيضاً دوراً في المجتمع إلي جانب استقرارهم في هذه المستعمرات الزراعية أو الدفاعية، إقامتهم مع عائلاتهم في مدن قريبة من المعسكرات، فمن المعروف أن القانون الروماني كان يحرم علي الجنود الزواج إلا بعد انقضاء فترة خدمته بالجيش، ولا يحق للمتزوج منهم باصطحاب زوجته إلي الولاية إذا كان من خارجها ولا إلي المعسكر إذا كان من أهل الولاية؛ حتي لا يشغله عن واجبه كجندي شئ آخر، وقد قبل الإمبراطور "أغسطس" علي مضض زيارة الجنود لزوجاتهم وعائلاتهم أثناء شهور الشتاء، وأثناء حكم الإمبراطور "تيبيريوس"(١٤-٣٧م.) ودارت المناقشات في مجلس الشيوخ حول رفع تلك القيود[٤٨]، وهو الأمر الذي لم يتم إلا أثناء حكم الإمبراطور "سبتميوس سيفيروس"(١٩٣م.- ٢١١م.) حيث منح الجنود في المغرب مثلهم مثل باقي الجنود في الولايات الأخري حق الزواج أثناء تأدية الخدمة العسكرية، وإقامة مستوطنات لهم بجوار المعسكرات، وكانت عبارة عن مدن كاملة يقيم بها أبناء الجنود وزوجاتهم وينتقل إليها الجنود في الأوقات التي لا تقتضي وجودهم بالمعسكر[٤٩].

ولعل أهمية هذا الوضع وأثره علي الجنود كفئة في المجتمع، أولاً أن هذا الإجراء الذي كان المقصود به الجنود الرومان والإيطاليين، شجع الجنود من العناصر الأجنبية الأخري علي الاستقرار ورفضهم العودة إلي بلادهم بعد انتهاء مهمتهم، وقد شجع هذا بطبيعة الحال علي إثراء الحياة الاجتماعية وتطورها بشكل ملحوظ، في وجود حياة مدنية في مناطق لم تكن تصلح لهذا الأمر، نظراً لأن المعسكر كان يوجد عادة في مناطق بعيدة عن المناطق السكنية.

وقد دلت الشواهد الأثرية علي استقرار الجنود وأسرهم في مدن خارج جدران المعسكر، حيث ظهرت منازلهم مكونة أحياء مدنية تسودها البساطة ويقل فيها التخطيط العمراني في بداية الأمر، ثم نمت واتسعت أرجاؤها حتي زادت مساحتها علي المساحة التي كان يشغلها المعسكرنفسه(٥٠)، والتي تحولت إلي مراكز هامة نمت فيها الحياة المدنية مثل مدينة "لمبايزيس" Lambaesis و"فيريكوندا" Verecunda(ماركونة Marcouna) ولاميجيجاوي Lamiggiggaoui (باستور) و"مداورا" Madaura (مداوروش Madaourouch) و"سطيفيس" Sitifis(سطيف Setif) و"كويكولوم" Cuiculum(جميلة)(٥١)،وكانت المدن التي اقيمت بجوار المعسكر تبعد عنه حوالي ميل وكان بعضها مقاماً بجوار المعسكر كما في مدينة "رابيدي" Rapidi (سورجواب) قرب مدينة "بسكرة" Bescera (بسكرة)(٥٢).

وقد أمدتنا الآثار المتبقية من هذه المدن والمعسكر الذي تلحق به وكذا المصادر التي تناولت هذا الموضوع صورة لحياة الجنود الاجتماعية في المغرب، والدور الذي قاموا به لتطوير وتحسين هذا المجتمع فإلي جانب الدور الخاص بنقل مؤثرات الثقافات المختلفة التي انتمي إليها هؤلاء فإنهم قاموا بدور آخر حيث كان من مبادئ العسكرية الرومانية، أن الجندي لا يدرّب تدريباً عسكرياً فقط، بل يتم تدريبه للقيام بشتي المهمات الأخري، فكان لهؤلاء الجنود دور في نمو وتطوير المدن في المغرب حيث تمت الاستعانة بهم في أعمال مد الجسور وبناء الطرق، وزراعة الأراضي القاحلة، وشق القنوات وإقامة خزانات المياه، والسدود اللازمة لتخزين مياه الأمطار، وحفر الآبار للتغلب علي مشكلة نقص المياه، وتجدر الاشارة مثلاً إلي أن المباني التي شيدها جنود الفرقة الأوغسطية في إقليم "لامبايزيس" كانت النواة للمدينة التي ازدهرت بعد هدم أسوار المعسكر،وكذلك فعلوا في مدينة "ثاموجادي" Thamugadi (تيمجاد الحالية بالجزائر)، التي كانت مكاناً كمعسكر هاماً في عهد الإمبراطور "تراجان"(٥٣).

وتم التعرف علي هذه الأعمال التي قام بها الجنود من الفرقة الأوغسطية؛ من خلال تسجيل الأعمال التي كان يتم نقشها علي حجر الرخام، وكان الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م.) هو أول من اتبع هذا التقليد في تسجيل الأعمال التي قامت بها الفرق العسكرية في المغرب، وتبعه في ذلك الأباطرة من بعده ، مثل تسجيل إتمام طريق عام علي أحد ممرات جبال الأوراس Aures والذي عرف بأسم Khanga Tigominis والذي قام بتمهيده جنود الفرقة الأوغسطية، علي عهد الإمبراطور "أنطونيوس بيوس" Antonius Pius،(١٣٨-١٦١م.)، والطريق الجبلي الذي قامت بتنفيذه الفرقة السادسة Ferrata عبر جبال الأوراس، وغيرها من الأعمال المدنية التي قامت بها الفرق العسكرية في المغرب(٥٤).

الخاتمة

اتضح من خلال بحث خريطة مجتمع المغرب البشرية أن الفئات الخمس التي شملت مختلف سكان المغرب(الرعاة، والمزارعون، والتجار، والصناع والحرفيون، والجنود) قد شكلتها الظروف الناجمة عن حركة الاستيطان وسياسة الرومان تجاهها، فقد أجبرت الضغوط المحيطة فئة البدو الرعاة علي مناهضة الوضع الخانق وانتهاز الفرص المواتيه للنيل منه، ومن ثم شكلت هذه الفئة قوة ضاغطة علي مناطق الإنتاج الزراعي الخاضعة للاستيطان الروماني، ودخلت السلطة معهم في صراع، خاصة أثناء العهد السيفيري الذي ترك البصمات الأثرية المتعلقة بهذا الصراع في جنوب ولايتي نوميديا وموريتانيا، وبدلاً من أن تفضي تلك الأعمال العسكرية الموجهة ضد الرعاة إلي التحكم في هذه الفئة، أدت إلي مضاعفة مشكلة الرعاة عندما بالغت في حملات التشتيت واحتلال مناطق الرعي في السهوب الغربية، وأبرز جانب لهذه المشكلة في تصوري يتجلي في القضاء علي الغطاء النباتي بالسهوب وهوامش الصحراء نتيجة الاستهلاك المكثف بواسطة قطعان الماشية المتكاثرة، وهكذا لم يعمل احتلال التل من طرف الرومان علي فتح الصحراء بواسطة الرعاة كما ذهب إلي ذلك كثير من المؤرخين وعلي رأسهم "ستيفان جزيل".Gsell,S فحسب، بل إنه ساهم في استنفاد الثروة النباتية والحيوانية لمناطق الجنوب. الأمر الذي

عجل بزحف ظاهرة التصحر علي تلك المناطق التي ذكر كتاب القرن الأول الميلادي بأنها كانت كثيفة النباتات.

فكانت ظاهرة تغليب الزراعة والعمران علي الرعي والبداوة التي مارسها الرومان بالقوة في بلاد المغرب نتيجة النمو الديموجرافي، وتزايد الحاجة إلي الإنتاج الزراعي قد أحدثت حالة من عدم التوازن بين الإنسان والبيئة، تلك الحالة التي بدت للرومان وكأنها صورة من الخلل في الدفاع، وشرعوا في مقاومتها بالوسائل العسكرية، لكنهم في الواقع لم يفعلوا إلا أنهم أجلوا موعد انفجار الأزمة إلي حين.

أوضحت الدراسة أن نشأة الطبقية في مجتمع المغرب مرتبطة بالرومان، فليس هناك أدلةعلي وجود الطبقية في مجتمع المغرب قبل فترة الاحتلال الروماني- فيما عدا قرطاجة- فالمجتمع في أغلبه كان قبلياً، واقتصاد القبيلة لم يسمح بتراكم الثروة ونمو الفوارق الطبقية، لأنه كان اقتصاداً ذا صبغة عائلية، وكان الجاه والنفوذ لايخرج عن إطار الأبوة فليس هناك أرباب عمل ونظم استغلالية، ولكن هناك أعياناً وزعماء سلمهم أبناء القبيلة الأمر، ولم يتسلطوا بثرواتهم وأملاكهم، هذا التسلط المبني علي الثروة والأملاك الذي عم المغرب طيلة فترة الاستعمار الروماني والذي تأسس علي قاعدة غالب ومغلوب، ومن الطبيعي أن يُشَرّع للفوارق الاجتماعية، ونتج عن ذلك ظهور الطبقات في المجتمع المغربي التي أعادت تشكيله، وكيف أن أفراد بعينهم ظلت مقدرات المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية مقتصرة عليهم وعلي ذويهم ومن يوالونهم، من فئات السكان الأخري، وكيف أن طبقات المجتمع الأخري من عامة وفلاحين وصناع وعبيد وغيرهم ظلت هي الطبقات المقهورة التي مارست روما سياسيتها الاستعمارية عليها.

أشارت الدراسة إلي ظاهرة الفوارق الاجتماعية حيث أحدثت سياسة الرومان تجاه السكان في تعميق الفوارق الطبقية والذي أدي بدوره إلي اختفاء طبقة العامة من مجتمع المغرب، فالسكان في نظر الرومان إما رومان أو غير رومان؛ وغير الرومان إما موالون للرومان وحلفاء لهم وقبلوا بسياسة الرومنة، وهم بالطبع ألحقوا بالطبقة الأرستقراطية، وفيما عدا هؤلاء فقد اعتبرهم الرومان في حكم المهزومين أو التابعين، وتم تجريدهم من

ممتلكاتهم وأصبحوا من الفقراء وبالتالي هبطوا إلي مستوي الطبقات الدنيا مشاركين لأصحابها من الفلاحين والأجراء وأصحاب الحرف الصغري والعبيد الأعمال التي توكل إليهم من قبل الرومان، وهم الذين حملوا راية المقاومة ضد الاحتلال الروماني.

بينت الدراسة سياسة الاستيطان بوصفه إضافة بشرية زادت من كثافة السكان وانتشارهم في المناطق الزراعية؛ علي إحداث حركة تعمير وتمدين بشكل كبير وسريع، بداية من المدن الساحلية البونية الأصل إلي التوغل نحو الجنوب، فأنشأت مدن رومانية بجانب الموروثة من القرطاجيين، وشهد المغرب نمواً عمرانياً واسعاً في تلك الفترة الاستيطانية، وظهور مدن ومستوطنات وبلديات رومانية وإيطالية، وما تم إضافته إليها من منشآت عامة دينية وثقافية وترفيهية، والعناية بنظم الإدارة فيها وإقامة المشروعات الزراعية وتنمية المحصولات وتمهيد الطرق ورواج التجارة، قد ساعد سكان تلك المدن علي التشبع بروح الثقافة الرومانية، فبعد أن منحوا الجنسية الرومانية شعروا بأنهم أصبحوا جزءاً من الدولة متمتعيين بحقوق جنسيتها كاملة.

وأوضحت الدراسة سياسة الرومان تجاه القبائل المغربية والتي انتشرت علي طول حدود الولايات الرومانية بدءاً من الحدود الشرقية لولاية نوميديا حتي المحيط الأطلنطي في الغرب، فقد احتلت قدراً كبيراً من اهتمامهم، وكانت مهمة السيطرة عليها جزءاً من النظام الخاص بكل ولاية ومسئولية في عنق حاكمها، فقد كانت تلك القبائل مصدراً للقلق وإثارة الشغب وإحداث الثورات علي طول الحدود الجنوبية، وهذا ما دفع الأباطرة إلي استعمال شتي الوسائل للسيطرة علي هذه القبائل وتحركاتها وثوراتها، فكان علي رأس هذه الإجراءات تشييد الحصون علي الحدود الجنوبية وتعبيد الطرق التي تصل الجنوب بالشمال لتسهل حركة نقل القوات والمعدات العسكرية لحماية الحدود، حتي تتمكن من رصد تحركاتها، ونظراً لقوة هذه القبائل وعزيمتها علي الاستقلال وتحرير الأراضي المغربية لجأ بعض الأباطرة إلي عقد المعاهدات مع بعض من رؤساء تلك القبائل ومنحهم المواطنة الرومانية؛ لضمان ولائهم وسيطرتهم علي ذويهم وتشجيعهم علي حياة الزراعة والاستقرار، ولكن هذه الخطط لم تأت بنتائج مرجوة وظلت تلك القبائل في نضالها وحققت

نجاحاً في عدة مجالات حتي سقطت هذه الإمبراطورية في نهاية الأمر تماماً علي يد الوندال عام ٤٢٩م.

فقد أبدي الامبراطور سبتيميوس سيفيروس(١٩٣-٢١١م.) مؤسس الأسرة السيفيرية (١٩٣-٢٣٥م.) والليبي الأصل، اهتماماً بالغاً باستعمار واستغلال الولايات الرومانية في المغرب، ولكن تبددت سياسته علي يد ثورات وإغارات القبائل علي حدود الولايات الجنوبية، مما صرفه نحو سياسة البطش والتنكيل وتنفيذ خطط الدفاع العسكري وتأمين الحدود؛ وشهدت نهاية حكم هذه الأسرة عصراً من الفوضي والاضطرابات سادت كل أنحاء الإمبراطورية؛ نتيجة ثورات السكان في الولايات ضد الحكم الروماني الذي بات حكماً مستغلاً لطاقاتهم وإمكاناتهم المادية والبشرية، ثم صراع الأباطرة الرومان فيما بينهم علي العرش، نضيف إلي ذلك زيادة انتشار المسيحية بالمغرب والذي كان قد بدأ منذ نهاية القرن الثاني الميلادي، وكان له أثره أيضا علي المجتمع مما يعني أن المغرب بدأ مرحلة جديدة تتغير فيها أحواله السياسية والاقتصادية بل والدينية فتغير المجتمع بكل مظاهره.

وتبين من دراسة موضوع "مجتمع المغرب تحت الاحتلال الروماني(١٤٦ق.م. - ٤٢٩م.)" أن مجتمع المغرب في فترة الاحتلال الروماني؛ قد نال قدراً كبيراً من التهميش، وإغفال كثير من المؤرخين لدور السكان الأهالي في المجتمع، والانشغال بترديد ونقل ونسخ موروثات المحتل، فهل يُقبل الباحثون علي تغيير هذه النظريات، وإعادة كتابة التاريخ وفهم هدفه الحقيقي بدراسة تاريخ سكان المجتمع الأصليون وإنصافهم، وتفاعلهم مع باقي الفئات الوافدة الأخري، ودورهم في شتي مظاهر الحياة الحضارية ومدي تأثر وتأثير كلاهما في الآخر بالكيفية التي تلائم السكان الأصليين في تلك الفترة من تاريخ المغرب القديم، ولعل هذا مسئولية أصحاب هذه المجتمعات الأصليون متمثلة في مؤرخيها.

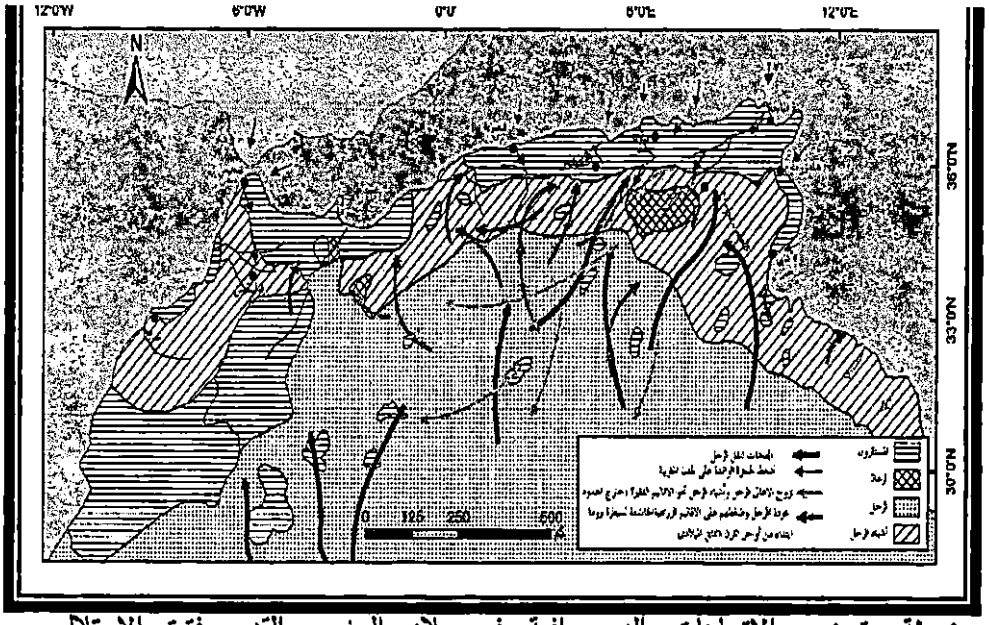

خريطة: توضح الاتجاهات الديموجرافية في بلاد المغرب القديم فترة الاحتلال الروماني(١٤٦ق.م.- ٤٢٩م.).

المصدر: من عمل الباحث اعتمادا علي مجموعة الخرائط الواردة في كتاب

Lassere,J.M.: Ubique Populus, Peuplement et movement de Population dans l'Afrique romaine de la chute de carthage a la fin de la dynastie des severes(146 A.C.-195P.C.)Paris,1977.

---

[1]([1]) Caesar: (Alexandrian, African and Spanish Wars) the African war(De Bello Africo), Translated by: Way, A.G., edited by: Page,T.E. and Others,(L.C.L),Harvard University Press, London, 1955,P.22-31.

([٢]) محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٢٣٥-٢٤٣.

([3]) Lassere,J.M.: Ubique Populus, Peuplement et movement de Population dans

l'Afrique romaine de la chute de carthage a la fin de la dynastie des severes(146 A.C.-195P.C.)Paris,1977,P.362.

Cames,F.H: Berberes aux Marges de l'histore,Paris,1922,P.10-31.

(٤) آمال مصطفي كمال: نظام الحكم في ولاية أفريقيا الرومانية من ١٤٦ق.م إلى ٢٨٤ م، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م.، ص١٠٣-١١٥.

كانت تلك الحدود مفتوحة في العصر القرطاجي أمام البدو الرعاة لرعي حيواناتهم في فترات جفاف أراضيهم، وحيث كانت العلاقة بينهم وبين سكان الشمال جيدة ومستقرة.

Campes,F.H.: Op.Cit.,P.251-254.

(5) Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.351-353.

(6) Leschi,L.: Recherches Airinne Sur Le Limes Romain De Numidie Paris,1937.,P.48.

(٧) محمد البشير شينيتي: مرجع سابق، ص٢٤٠.

(8) Gsell,S.: La Tripoltaine le Sahara au III, Siecle Notre.C.R.A.I.,1926, P.43.

(9) Rachet,M.: Rome et les Berbères, Un Probleme Militaire d'uguste dioclition,Coll, Latomus, Vol.110,London,1970. P.231-238.

Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.345.

Salama,P.: Les Voies Romain,de l'Afrique du Nord, Alger,1951P.27,28.

Ibid: Nauveaux.Op.Cit.,P.329-365.

([10]) Rachet,M.: Op.Cit.,P.223,22.; Leschi.L.: Op.Cit.,P.54-56.

([11]) Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.362.

([12]) Strabo: Geography(Geographia), Translated by: Horace, W.,(L.C.L.), London, 1960, XVII,I,13-19.

([13]) Polybius:The Histories(Historiae),Translated by: Paton, W.R.,edited by: Page,T.E.and Others,(L.C.L.), London, 1927 X,II,P.3,4.

([14]) محمد البشير شنيتي: مرجع سابق، ص١٩٠.

([15]) رستوفتوف، م.: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص٣٩٨.

([16]) محمد البشير شنيتي: وضعية الأرض وطرق استغلالها في بلاد المغرب في العهد الروماني وبداية العهد الإسلامي، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٤٣، دمشق، ١٩٩٢م، ١٣-٢٦.

([17]) Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.362.

([18]) Reygasse,M.: Découverte d'une Technique Campanienne Dans le Paléolithiqueinferieur de Sud Constantinois, Extrait de Congres Préhistorique de France, X émeSession, 1953,P.3-11.

([19]) كان شعراء الرومان يبالغون في وصف السلع الآتية من تلك البلاد وإضفاء الطابع الأسطوري عليها، وليس شعراؤهم فقط ولكن عمل المسكوكات أيضاً، فقد أصدر هؤلاء قطعاً نقدية نقشوا عليها صورة الإلهة أفريقيا محاطة بسنابل القمح الأفريقي، وكان ذلك أثناء الحرب بين قيصر وبومبي.

Babelon,E.: Description Historique et Chronologique des Monnaies de la République Romaine, T.I, Paris,1887,P.476-479.

(٢٠) رشيد الناضوري: المدخل التحليلي الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٧م، ص١١٠، ١١١.

أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص١١٤.

Lipinski,E.: Magon,Dictionnaire de la Civilisation Phénicienne,paris,1987.

(21) Polybius: III, P.191,192.

Bertrady,F.: La Communaute Greco-latine de Cirta, Pendant la 2eme S,et la Premiere Moitie du ier S. Avant J.C., Inlatomus,44,1985,P.157-160.

(٢٢) عقون محمد العربي: من التاريخ الحربي في الشمال الأفريقي القديم، مرجع سابق، ص٩٧.

(23) John,T.S.: the Myth of Trans- Saharan Trade during the Roman Era,The International Journal of African Historical studies, Vol.8,NO.4, Boston University African studies Center, London,1975,22-25.

(٢٤) محمد البشير شنيتي: مرجع سابق، ص١٩٠، ١٩١.

عززت الطرق التي أنشأها الرومان في انحاء المغرب السيطرة العسكرية بالدرجة الأولي، ولكن دورها الاقتصادي لا يقل أهمية، فقد سهلت الأمور أمام التجار للمبادلات التجارية بين القطاعات والأقاليم والمدن والقري، وظهرت العديد من الأسواق في المغرب بفضل هذه الطرق، التي يسيطر عليها التجار الإيطاليون بجانب بعض التجار المحليين. عقون محمد العربي: مرجع سابق، ص١٣٩,١٣٨.

(25) Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.407.

Rouge,I.: Recherches sur l'organisation du Commerce Maritime en Mediterranees Sous l'empire Romaine, Paris,1965,P.309.

(٢٦) شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، تونس- الجزائر- المغرب الأقصى، من البدء إلي الفتح الإسلامى٦٤٧م، ترجمة: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الطبعة الثالثة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٥١م، ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٢٧) سعدية سرقين: أهمية نوميديا الاقتصادية بالنسبة لروما من ٤٦ ق.م إلى نهاية القرن الثانى الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٣م، ص ١٣٥-١٣٩.

(28) Gsell,S.: Op.Cit.,T.VI,P.70,71.

(29) Texier,M.: Memoire Sur Les Ports Situes L'embouchure du Tibre: Le Port de Claude,Le port de Trajan, in C.R.A.I., 1857,P.100.

كانت ترسل المنتجات المغربية إلي روما بعد أن يتم نقلها من موانئ المغرب إلي ميناء "بوزول"Pouzzoles في خليج نابولي بإيطاليا علي بعد ٢٠٠ كم من روما، ومنذ عهد "هادريان" إلي ميناء "أوستيا"Ostie بالقرب من روما علي نهر التيبر. Texier,M.: Op.Cit.,P.102.

أحمد إلياس حسين: سلع التجارة الصحراوية، الصحراء الكبري، مركز جهاد الليبيين، ليبيا، ١٩٧٩م، ص٢٥-٣٨.

(٣٠) أوزينة، م.: من تاريخ أصول المغرب، ترجمة، محمد بنعبد الله، مجلة التربية الوطنية، الرباط، ١٩٦٠، ص٤٠.

امتازت المنسوجات الأفريقية بصباغتها الأرجوانية ولذلك كانت ذات شهرة في كل أنحاء البحر المتوسط، فقد تغن الشعراء الرومان بالنسيج المغربي.

([31]) Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.130. ; Gsell,S.: Op.Cit.,T.VI.P.66,67.

([٣٢]) محجوبي، م.: العصر الروماني وما بعده في شمال أفريقيا، موسوعة تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني، حضارات أفريقيا القديمة، ترجمة السيد أحمد عبد الرحيم مصطفي وآخرون، اليونسكو، ١٩٨٥م، ص٤٩٧.

([33]) Burdeau,F.N.: Charbonnel, M.Humbert,Aspect de l'empire Romaine, Paris,1966,P.64.

([٣٤]) كان هناك نوعان من الأواني الفخارية المغربية، الأول؛ هي القدور والصحاف والصحون والأقداح والكؤوس ذات المقبض أو بدونه، وغيرها لها مظهر ضارب للرمادي أو الأسمر أو الأسود، وقد عثر في بعض المدافن الأهلية التي تعود إلي القرن الأول قبل الميلاد بكثير من هذه الأوعية الخشنة، والتي لاتزال بعض النساء تصنع مثلها حتي اليوم في أنحاء متفرقة في المغرب، خاصة في الأرياف والأماكن الجنوبية، والنوع الثاني من الفخار، يتكون من فخار ملون، متقن الصنع عن سابقه، ويصنع في عدة قبائل، ويطغي عليه الجانب الزخرفي، فهي فنية أكثر منها أوعية طعام، والمقتبس من الفخار الفينيقي واليوناني، فقد عثر في جزيرتي قبرص وصقلية علي مثل هذا النوع من الفخار. Gsell,S.: Op.Cit.,T.VI, P.65,66.

([٣٥]) من المحتمل أن بعض الصناعات التي يزاولها بعض الحرفيين، قد تكون قد نشأت منذ زمن بعيد جداً، حتي قبل دخول الفينيقيين المغرب، واستمرت تتابع علي مر العصور، وهكذا يكون الأمر لحرفة الحدادة، التي يجهل المؤرخون بداية العمل بالحديد في المغرب، وأن اللفظ المغربي "أزل"Azzel أو "أزول" Auzzel الدال علي هذا المعدن، يكون مشتقاً من اللفظ السامي "برزل"Barzel الذي كان مستعملاً عند الفينيقيين واليهود، وحرفة الحدادة حقيرة في كثير من بلاد المغرب، وأهلها يتوارثونها جيلاً من بعد جيل ولا يتزاوجون إلا فيما بينهم.

Gsell,S.: Op.Cit.,T.VI,P.68-69.

(٣٦) رستوفتزف، م.: مرجع سابق، ص٣٦٩.

(٣٧) المرجع نفسه، ص٣٦٩، ٣٧٠.

(38) Ponsch,M.: Tarradell, Garrum et Industries Antiques de Salaison dx dans la Méditerranée Occidantale, Paris,1965,P.9-77.

(٣٩) آمال مصطفي كمال إبراهيم: مرجع سابق، ص٨٤.

كان السكان من غير الرومان والإيطاليين يخضعون لضريبة مقابل عدم تجنيدهم ضمن القوات الرومانية، ولكن كانت القبائل غير القادرة علي دفع هذه الضريبة يتم مطالبة شيوخها بتقديم الجنود من أبنائها، وكان يسند إليهم الأعمال الخدمية داخل المعسكر الروماني.

عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني، عصر الثورة من تيبريوس جراكوس إلي أكتافيوس أغسطس،الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٣٠٥.

(٤٠) آمال مصطفي كمال إبراهيم: مرجع سابق، ص٦٣-٦٥.

(٤١) علي الرغم من اعتماد الرومان في قوات المغرب في هذه الفترة علي العنصر المحلي المغربي، إلا أن تواجده في الفرق الأساسية كان ضعيفاً بالنسبة لحجمه في القوات المساعدة، ويرجع السبب في ذلك إلي طول مدة الخدمة المفروضة علي الجندي لكي يتقاعد وذلك لا يتناسب مع هؤلاءممن اعتادوا حياة الحرية وعدم الخضوع للقيود، ومن ناحية أخري لحذر الرومان منهم لشكهم في ولائهم لهم.

أحمد توفيق المدني: قرطاجنة في أربعة عصور، من عصر الحجارة حتى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٦م.، ص٩٥.

(٤٢) كانت الفرق تتوزع علي المراكز المختلفة بنوميديا، وتنضم إليها كتائب النوميديين، وكان عددهم جميعاً يعادل عدد جنود فرقة الفيلق(٥٠٠٠ جندي وأكثرهم من الفرسان)، وكانت توجد بموريتانيا الشرقية والغربية الفرق المساعدة، وعدد جنوده(١٥٠٠٠ جندي)، أما البلاد التونسية،- مقر البروقنصلية- فهي كانت ولاية مدنية خالية من الجنود،- ليسيطرة الرومان عليها وتأمينها- فهي لاتستخدم إلا قوات الشرطة Cohorte Civile المكلفين بحفظ النظام بمدينة قرطاجة، التي كانت ترسلها روما إلي قرطاجة وتتكون من ١٠٠٠ شرطي. وكان الجنود المغاربة يشاركون في كافة فرق الجيش، سواء في المشاة أو الفرسان.
Lassere,J.M.: Op.Cit.,t,P.29.

(٤٣) كامب،ج.: أصول السكان في ليبيا، آراء غربية، الجزء الأول، البربر الذاكرة والهوية،ترجمة، جاد الله عزوز الطلحي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٥م.، ص١٩٥.

(44) Graham, Alexander.: Roman Africa, An Outline of the Raman Occupation Of North Africa, London,1902P.22,23.

(45) Ibid: P.23.

(٤٦) محمد البشير شنيتي: مرجع سابق، ص١٩٤.

(47) Lassere,J.M.: Op.Cit.,T.P.29.

(٤٨) رستوفتزف، م.: مرجع سابق، ص٤٧٧.

عارض أحد الأعضاء ويدع "كايكينا سيفيروس" Caecinna Severus هذا الاقتراح بحجة أنه لا يجب علي أي حاكم يتقلد منصب في أي ولاية أن يصطحب زوجته، معللاً ذلك بأن الزوجات ينشغلن في أوقات السلم بممارسة عادات الترف، وعند نشوب الحرب يعقن العمليات العسكرية، ولكن السناتو نجح في رفض اعتراض "كايكينا" ووافق علي الاقتراح المقدم، ووجد الجنود والموظفون أنفسهم يستقرون مع

زوجاتهم وأبنائهم في مستوطنات بالقرب من المعسكر. آمال مصطفي كمال إبراهيم: مرجع سابق، ص٩٦، ٩٧.

([49]) Gsell,S.: Op.Cit.,T.4.106.

([50]) Lassere,J.M.: Op.Cit.,P.358.

([51]) Gsell,S.: Op.Cit.,T.4.86.

([52]) Lassere,J.M: Op.Cit.,P.315.

([٥٣]) آمال مصطفي كمال إبراهيم: مرجع سابق، ص٨٩,٩٩.

([54]) Graham, Alexander: Op.Cit.,P.108.